قصيدة الحمَّية الإسلامية في الانتصار لابن تيمية

لأبي المظفر يوسف بن محمد العبادي السّرّمرّي [1]

تحقيق وتعليق الشيخ

صلاح الدين مقبول أحمد

اعتنى بها

محمد ناهض عبد السلام حنُّونة

غزَّة –فلسطين

---

(١) هو الإمام العلامة، الحافظ القدوة، جمال الدين، أبو المظفر: يوسف بن محمد بن مسعود بن محمد العبادي –بالتخفيف –السرَّمرّي، نزيل دمشق الحنبلي. ولد في (٦٩٦ هـ) بـ (سر من رأى) وتوفي (٧٧٦ هـ) بدمشق. وكان –رحمه الله –زاهدا عابداً، محسناً، عمدةً في نقد رجال الحديث وضبطه، صنف في أنواع كثيرة نثراً ونظماً.

وكان رحمه الله مكثراً من التأليف والتصنيف، وقد بلغت تصانيفه المائة مُصنَّف، في بضعةٍ وعشرين علماً. وخرج وأفاد وأملى رواية وعلماً، وقد أحسن في هذا الرد المقبول وهدم تلك الأبيات بنظام المنقول وجلال المعقول، وبرزت شخصية السرّمرّي في أمرين، وهما:

–اعتناؤه بعقيدة السلف الصالح والرد على أهل الكلام المذموم، وله نظمٌ في العقيدة باسم: (نهج الرشاد في نظم الاعتقاد).

–واشتغاله بالفقه والحديث، وقد تفقَّه على الشيخ سراج الدين الحسين بن يوسف التبريزي، كما ذكره الحافظ ابن حجر في "الدرر الكامنة".

المقدمة

١	الحمد لله حمداً أستعين به	في كل أمرٍ أُعاني في تطلُّبه [٢]
٢	لا سيما في انتصاف من أخِي إحَنٍ	طغى علينا وأبدى من تعصُّبِهِ [٣]
٣	بغياً وعدواً وإفكاً مُفترىً وهوىً	فقلتَ رداً عليه في توثُّبه [٤]
٤	يا أيها المعتدي قولاً ومُعتقداً	على ابن تيمية ظُلماً ومذهبه [٥]
٥	بيِّن لنا بصريح اقول معتمدَ الـ	إنصافِ والعدلِ فيه ما تُريدُ به
٦	الغضُّ منه فهذا لا يجوز أن التـ	ـحقيقُ للحقِّ، فاسلك نهجَ سبسَبِهِ [٦]
٧	شهدتَ بالفضلَ فيه، ثُم جئتَ بما	ينفيهِ، فعلَ غويٍّ في تلعُّبِهِ
٨	أجملتَ قولكَ فيه بالوقيعةِ من	غيرِ البيانِ له، لكن بأصْحُبِهِ
٩	موَّهتَ فيه على الجُهَّال لا ورعٌ	ثناكَ عنهُ، ولا توقيرَ منصبِهِ

---

(٢) أعاني: أقاسي.

(٣) إحنٍ، كعنب، جمع الإحنة بكسر الهمزة: الحقد أو الغضب.

(٤) تثوُّبه: ظفره واستيلائه ظلماً

(٥) المعتدي: هو التقيُّ السُّبكي، الي ردَّ في قصيدته على شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٦) الغضُّ منه: الوضع من قدره، أي قدر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى. السبسب: المفازة، أو الأرض المستوية البعيدة. والمعنى أنك إذا أردت تحقيق الحق، عليك أن تسلك منهج شيخ الإسلام. وقال الدكتور محمد خليل هراس في كتابه "ابن تيمية السلفي" (ص ١٩٨): "وجميع دعاة الإسلام من بعده، إنما بهديه اقتدوا، وعلى كتبه تخرجوا". وقال الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق على ظهر كتابه "لمحات من حياة ابن تيمية": "لا غنى لمسلمٍ يُريد أن يعرف الإسلام الحقيق عن مطالعة كتبه، والتزود من علمه".

١٠	طعنتَ فيه، فجاءت في الحِجاب كذا	من يَخصِمُ الحقَّ لم يظفر بمطلبهِ (٧)
١١	وجئتَ فيه بقولٍ غير مُتَّسقٍ	لفظاً ومعنىً بعيدٍ من مُصوّبِه
١٢	نظمتَ شعراً زعمتَ الفضل فيه فقد	أسجلتَ بالنَّقصِ فاكرع مُرَّ مشربه (٨)
١٣	ركيكُ لفظٍ قوافيه مُغايَرةٌ	(.....) إيطاءً بأضرُبه (٩)
١٤	عرَّضت عرضكَ في عرض العُرُوض بما	يُزري وغرَّك فيه شَيمُ خُلَّبِهِ (١٠)

تقصير السُّبكي في الرد على الروافض

١٥	فما أجدتَ بهجو الرافضيِّ ولا	قصَّرت في الطعن في السُّني ومذهبه (١١)

(٧) قال تعالى: {بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمرٍ مريج} (ق: ٥).

(٨) أسجلتَ بالنقض: أي قدمت كلاماً متناقضاً. وفي رواية (بالنقص): أي سجلت كلاماً ناقصاً. فاكرع: فاشرب.

(٩) قوافيه: جمع قافية، آخر كلمة في البيت، أو الحرف الذي تُبنى عليه القصيدة. وفي بداية الشطر الثاني من البيت بياضٌ في الأصل. قلتُ (محمد حنونة): ويُمكن أن يُقال: (مُصرُّ تِيْهٍ إيطاءً بأضرُبِه).

(١٠) شيم: شام البرق نظر إليه، أين يقصد؟ وأين يُمطر. خلب: السحاب لا مطر فيه. والمعنى: أنه غرَّك النظر إلى برق السحاب؛ فظننتَ أنه لا مطر فيه.

(١١) الرافضي: هو جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي (٦٤٨ –٧٢٦ هـ) المشهور عند الشيعة بالعلامة، صاحب كتاب "منهاج الكرامة في إثبات الإمامة". الذي ردَّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى –في سفره القيم "منهاج السُّنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية".

١٦	قُلتَ الروافض قومٌ لا خلاق لهم	من أجهل الناس في قولٍ وأكذبه (١٢)
١٧	قصَّرتَ في هجوهم في قصرِ جهلهمِ	والكذب في العلم خِبٌّ فارجع بأَعْيَبِه (١٣)
١٨	هُم أكذبُ الناس في قولٍ وفي عملٍ	وأعظمُ النَّاس جهلاً في توثُّبِه (١٤)
١٩	وهم أقلُّ الورى عقلاً وأغلهم	عن كل خيرٍ وأبطا عن تكسُّبه (١٥)
٢٠	وكلُّ عيبٍ يردُّ الشرع قد جمعوا	هُم جُند إبليس بل فُرسان مُقنَبه (١٦)

(١٢) قلت الروافض: أشار به الناظم أبو المظفر العبادي السرمري إلى قول التقي السبكي: (إن الروافض قومٌ لا خلاق لهم).

(١٣) خب: أي خيبة وخسران. ارجع بأعيبه: والكذب في العلم أشد أنواع الخداع وأعيبه.

(١٤) انظر شرح البيت رقم (٢٠) الآتي.

(١٥) أبطأ: ضد أسرع.

(١٦) المقنب من الخيل: ما بين الثلاثين إلى الأربعين، أ، زهاء ثلاثمئة. (فائدة): قال ابن المبارك: وجدتُ الدين لأهل الحديث، والكلام للمعتزلة، والكذب للرافضة، والحيل لأهل الرأي، وسوء التدبير آل أبي فلان" (مختصر الصواعق: ٢/ ٣٥٩). وذكر شيخ الإسلام بعض النقول عن الشعبيّ وغيره؛ فقال: " منهاج السنة النبوية (١/ ٢٧): "فضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلتين: سئلت اليهود من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم؟ قالوا: حواري عيسى، وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد –صلى الله عليه وسلم –أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية، ولا يثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة، ولا تجاب لهم دعوة، دعوتهم مدحوضة، وكلمتهم مختلفة، وجمعهم متفرِقٌ، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله".

٢١	وقُلتَ أيضاً وشرُّ القول أبعدَه	عن الصَّوابِ فرُم تحصيلَ أصوبه (١٧)
٢٢	والناسُ في غُنيةٍ عن ردِّ إفكِهِمُ	لهُجنةِ الرفضِ واستقباحِ مذهبه (١٨)
٢٣	أكُلُّ ما ظهرت في الناس هُجنَتُه	يصيرُ أهلاً لإهمالِ النكيرِ به (١٩)
٢٤	والله لا غُنيةٌ عن ردِّ إفكِهِمُ	بل ردُّه واجبٌ أعظِم بموجِبه
٢٥	أيُتركونَ يسبُّون الصحابةَ وال	إسلامُ يختالُ زهواً في تصلُّبه (٢٠)
٢٦	هذا مقالٌ شنيعٌ لم يقُل أحدٌ	به لا رهْطُ جَهْمٍ في تحزُّبه (٢١)

وقال الشعبيُّ: "لو كانت الشيعة من البهائم لكانوا حمراً، ولو كانت من الطير لكانوا رخماً. (الرخم: طائر يطلي بمرارته لسمِّ الحيَّة وغيرها ...). وقال ابن القيم في "نونيته"

وكذاك أعداء الرسول وصحبه ... وهم الروافض أخبُ الحيوانِ

(١٧) رم: اقصد.

(١٨) هذا البيت من قصيدة السُّبكي. الهُجنة: القبح.

(١٩) أعظم بموجبه: ما أعظم هذا الموجب.

(٢٠) يختال زهواً في تصلُّبه: أي حسناً وجمالاً مع كمال قوته وشوكته.

(٢١) رهط: من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة أو ما دون العشرة. وجهم: هو ابن صفوان. قال الذهبي في "الميزان" (١/ ٤٢٦):"جهم بن صفوان، أبو محرز السمرقندي الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، وما علمته روى شيئاً، لكنه زرع شراً عظيماً". وقال علي بن محمد الجرجاني في "التعريفات" (ص: ٨٠): "الجهمية: هم أصحاب جهم بن صفوان، قالوا: لا قدرة للعبد أصلًا، لا مؤثرة، ولا كاسبة، بل هو بمنزلة الجمادات، والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما حتى لا يبقى موجود سوى الله تعالى".

ولما كان مذهب الجهمية في التعطيل والجبر أصلاً، تفرّع عنه كثيرٌ من فرق الضلال؛ كالمعتزلة، والفلاسفة، ومتأخري الأشاعرة، والقرامطة، وملاحدة الصوفية القائلين بالحلول والوحدة؛ كابن عربي، وابن سبعين، وأضرابهما، ولذا قال ابن القيم في نونيته:

٢٧	والله لولا سيوفٌ من أئمتنا	في كاهِلِ الرَّفضِ لا تُلوى ومَنكِبِه [٢٢]
٢٨	لأضحتِ السُّنة الغراءُ دائرةً	بين البريَّةِ كالعنقا وأغرَبِه [٢٣]
٢٩	وقُلتَ للّرجس لم تَطُهر خلائقُه	داعٍ إلى الرَّفضِ غالٍ في تعصُّبه [٢٤]
٣٠	لقد تقوَّل في الصحب الكرام ولم	يستحي مما افتراه غير مُنجِبه [٢٥]
٣١	أيسكت الناس عن هذا ودعوتِه	إلى الضلالةِ واستعلاءِ منصِبه [٢٦]
٣٢	وما تقوَّل في الصحب الكرام وما افتـ	ـراه فيهم ولم يُرجم بكوكَبِه [٢٧]

جهم بن صفوان وشيعته الألى ... جحدوا صفات الخالق الديان

بل عطلوا منه السموات العلى ... والعرش أخلوه من الرحمن

ونفوا كلام الرب جل جلاله ... وقضوا له بالخلق والحدثان

(٢٢) لا تلوى: لا ترد.

(٢٣) العنقاء: طائر معروف الاسم لا الجسم، أو طائرٌ عظيم يبعد في طيرانه.

(٢٤) أشار إلى بيت السُّبكي: (وابن المطهر لم تطهر خلائقه). والرجس: أراد بعه ابن المطهر. وقال شيخ الإسلام في "منهاج السنة النبوية (١/ ٢١): "وهذا المصنف (يعني ابن المطهر) سمى كتابه (منهاج الكرامة في معرفة الإمامة)، وهو خليق بأن يسمى (منهاج الندامة)، كما أن من ادعى الطهارة، وهو من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، بل من أهل الجبت، والطاغوت، والنفاق كان وصفه بالنجاسة، والتكدير أولى من وصفه بالتطهير. ومن أعظم خبث القلوب أن يكون في قلب العبد غل لخيار المؤمنين، وسادات أولياء الله بعد النبيين، ولهذا لم يجعل الله تعالى في الفيء نصيبا لمن بعدهم إلا الذين يقولون: {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم} (سورة الحشر: ١٠).

(٢٥) من أبيات السُّبكي. غير منجبِه: أي باطل، غير مختار.

(٢٦) عن هذا ودعوته: أي ابن المطهر الحلي الرافضي.

(٢٧) بكوكبه: أي كوكب شيخ الإسلام ابن تيمية.

٣٣	أيُترك الأمر بالمعروف مُطَّرحاً	والنَّهيُ عن مُنكرٍ ما من يقولُ بهِ (٢٨)
٣٤	كلّا ومن رفع السماء الطِّباق على	وجهِ الثَّرى وتعالى في تحجُّبهِ (٢٩)
٣٥	لنقذفنَّ على بُطلان مذهبه	بصارمِ الحقِّ مسلولاً ومِرزَبِه (٣٠)
٣٦	حتَّى يفيء إلى الإسلام عن كثبٍ	ويترك الكُفر مُقصىً غيرَ مُكثبِه (٣١)
٣٧	تقدَّم اليومَ من أصحابنا كُتُبٌ	ردٌّ على الرفضِ ترميهِ بأشهُبِه (٣٢)

مؤاخذات السُّبكي على شيخ الإسلام ابن تيمية والردُّ عليها

٣٨	ولابن تيمية ردٌّ عليه وفيّ	بِمَقصدِ الردِّ واستيفاءِ أضرُبِه (٣٣)
٣٩	كما زعمتَ وأوفى بالمقاصِد مع	كيدِ الحَسودِ ومع إرغامِ أرنَبِه (٣٤)
٤٠	حُسناً وضَرَّتُها بالحُسنِ شاهِدةٌ	لها وما الحُسنُ إلا ما شَهِدتَ به (٣٥)
٤١	وقُلتَ بغياً وعدواً شابَه حسدٌ	والشَّوبُ يظهرُ حِيناً من مُشوّبِه (٣٦)

---

(٢٨) مطرحاً: مرمياً.

(٢٩) السبع الطباق: السماوات السبع. وجه الثرى: وجه الأرض.

(٣٠) صارم الحق: سيفه. مرزبه: عصى من حديد.

(٣١) مقصى غير مكثبه: مبعداً غير قريب.

(٣٢) أشهب: جمع شهاب، وهو الشعلة من النار الساطعة.

(٣٣) من أبيات السُّبكي. استيفاء أضربه: إعطاؤه إياها حقها.

(٣٤) مع إرغام أرنبه: مع رغم أنفه. والأرنب: طرف الأنف.

(٣٥) ضرتها: أي المرأة، وهما الضرتان: زوجتا الرجل، كل واحدة منهما ضرة للأخرى.

(٣٦) شابه: امتزجه. وقوله (والشوب يظهر...) هو بمعنى: "يكادُ المريب أن يقول خذوني".

٤٢	لكنَّه خلَطَ الحقَّ المُبينَ بما	يشُوبه كدرٌ في صفْوِ مَشرَبِه (٣٧)
٤٣	يُحاولُ الحشوَ أنَّى كان فهو لهُ	حَثِيثُ سيرٍ بِشرْقٍ أو بمغرِبه (٣٨)

(٣٧) من أبيات السبكي. لكنه خلط: أراد به شيخ الإسلام.

(٣٨) من أبيات السُّبكي. والحشو لغةً: ملء الوسادة وغيرها بشيء، وما يُجعل فيها يُسمى حشواً أيضاً. واصطلاحاً: عبارة عن الزائد الذي لا طائل تحته. والحثيث: السريع. يحاول الحشو: يتهم السُّبكي شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه يرى الحشو والتجسيم، ونعوذ بالله من ذلك.

وإليكم ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح هذه المسألة، قال رحمه الله في "مجموع الفتاوى": (١٣/ ١٥٤): "وقد قيل: أول من قال في الإسلام أن القديم جسم هو هشام بن الحكم كما أن أول من أظهر في الإسلام نفي الجسم هو الجهم بن صفوان. وكلام السلف والأئمة في ذم الجهمية كثير مشهور فإن مرض التعطيل شر من مرض التجسيم، وإنما كان السلف يذمون المشبهة كما قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وإسحاق بن راهويه وغيرهما قالوا: المشبهة الذين يقولون: بصر كبصري ويد كيدي وقدم كقدمي".

وقال بعدما فصَّل في الجهة والحيِّز (٦/ ٤٠): "فبهذا التفصيل يزول الاشتباه والتضليل وإلا فكل من نفى شيئا من الأسماء والصفات سمي من أثبت ذلك مجسما قائلا بالتحيز والجهة".

ونرى أن كتابات شيخ الإسلام مليئة بالرد على المجسمة والنفاة، وبيَّن رحمه الله أن أهل السُّنة والدماعة وسطٌ في باب الصفات بين أهل التعطيل: الجهمية، وأهل التمثيل: المشبهة.

ومع هذا لم يتوانَ خصومه من المعاصرين أمثال "التقي السُّبكي"، و"أحمد الكلابي"، و"ابن بطوطة"، و"أبي حيان النحوي"، وغيرهم من المتأخرين مثل "الكوثري" وأذنابه في أن يرموه بالحشو والتجسيم والتشبيه، وأمرهم كما قال الشاعر:

إن يعلموا الخير يُخفوه وإن علموا ... شرّاً أُذيعَ وإن لم يعلموا كذبوا

ومعلومٌ أن أهل الباطل من المبتدعة قديماً وحديثاً –سموا أهل السنة والحديث بمثل هذا اللقب الخبيث. كما ذكره ابن قتيبة في "تأويل مختلف الحديث". وقد ردَّ عليهم الجيلاني في "غنية الطالبين"، والشاه أحمد بن عبد الرحيم والمعروف بـ"ولي الله الدهلوي" في "حجة الله البالغة"، وكذلك السيد محمود الآلوسي في شرحه لكتاب "مسائل الجاهلية" لابن عبد الوهاب. وقال الإمام ابن القيم في "النونية" مُبيناً تاريخ تلقيب أهل السُّنة بالحشوية:

ومن العجائب قولهم لمن اقتدى ... بالوحي من أثر ومن قرآن
حشوية يعنون حشوا في الوجو ... د وفضلة في أمة الإنسان
ويظن جاهلهم بأنهم حشوا ... رب العباد بداخل الأكوان
إذ قولهم فوق العباد وفي السما ... ء الرب ذو الملكوت والسلطان
ظن الحمير بأن في للظرف والر ... حمن محوي بظرف مكان
والله لم يسمع ندا من فرقة ... قالته في زمن من الأزمان
لا تبهتوا أهل الحديث به فما ... ذا قولهم تبا لذي البهتان
بل قولهم إن السماوات العلى ... في كف خالق هذه الأكوان
حقا كخردلة ترى في كف ... ممسكها تعالى الله ذو السلطان
أترونه المحصور بعد أم السما ... يا قومنا ارتدعوا عن العداون
كم ذا مشبهة وكم حشوية ... فالبهت لا يخفى على الرحمن
يا قوم إن كان الكتاب وسنة ... المختار حشوا فاشهدوا ببيان
أنا بحمد إلهنا حشوية ... صرف بلا جحد ولا كتمان
تدرون من سمت شيوخكم ... بهذا الاسم في الماضي من الأزمان
سمى به ابن عبيد الله عبد الله ذا ... ك ابن الخليفة طارد الشيطان
فورثتم عمرا كما ورثوا لعبد ... الله أنى يستوي الإرثان
تدرون من أولى بهذا الاسم وهـ ... ـو مناسب أحواله بوزان
من قد حشا الأوراق والأذهان من ... بدع تخالف موجب القرآن

٤٤	يَرى حوادِثَ لا مبدا لأولها	في الله سُبحانه عمَّا يُظنُّ به (٣٩)
٤٥	والله ما قال أهلُ الرَّفضِ إذ خَصمُوا	هذا المقالَ وقد صِيبوا بِصَيِّبِهِ (٤٠)
٤٦	هذي تصانيفُ هذا الشَّيخِ سائرةٌ	بِشَرقِ ذا الكونِ لا تخفى ومَغرِبه (٤١)
٤٧	صفوٌ بلا كدرٌ طابت مَوارِدُها	لذيذةٌ كَجَنى نحْلٍ وأعذَبِه (٤٢)
٤٨	دليلُها الآي والأخبارُ ساقتُها	والعِلمُ يرضُ فيها خَيل مَوكِبه (٤٣)

هذا هو الحشوي لا أهل الحد ... يث أئمة الإسلام والإيمان

وعمرو بن عُبيد: رأس المعتزلة، وهو الذي سمّة علد الله بن عمر رضي الله عنهما حشوياً. وقال شيخ الإسلام ردَّاً على نُفاة الصفات في "مجموع الفتاوى" (٣/ ٢٣): "وأما ما نفيتَه فهو ثابتٌ بالشرع والعقل، وتسميتُكَ ذلك تشبيهاً وتجسيماً تمويهٌ على الجُهّال".

(٣٩) من أبيات السُّبكي. وفيه تمثيلٌ لرأي الجهمية، حيث قالوا: "أن دوام الحوادث ممتنع... فيمتنع أن يكون الباري عز وجل لم يزل فاعلاً، متكلماً بمشيئه، بل يمتنع أن يكون قادراً على ذلك؛ لأن القدرة على الممتنع ممتنع، وهذا فاسد". انظر شرح الطحاوية (ص ١٣٢). وسيأتي الكلام على مسألة "إمكان حوادث لا أول لها" في البيت رقم (٥٩) الآتي.

(٤٠) وقد صيبوا بصيِّبه: أي أصابهم مطره، وعلمه.

(٤١) تصانيف شيخ الإسلامْ مليئة بالرد على الحشوية والمجسمة والمشبهة، راجع على سبيل المثال، مجموع فتاواه: (٣/ ٥٠، ١٤١)، (٤/ ١٤٤ -١٥٥)، (٥/ ٢٥٨)، (٦/ ٤٠)، (١٣/ ١٥٤)، (١٧/ ٢٩٦). ومنهاج السنة النبوية (٢/ ٥٢٠ -٥٢٢، ٥٥٥، ٥٦٠). وانظر: شرح حديث النزول. وفي هذه الكتب وغيرها من تصانيف يخ الإسلام ارد على هذه الفرى والأكاذيب، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢) طابت مواردها: حسنت مواقعا. جنة نحل: عسله.

(٤٣) الآي: الآيات. والأخبار ساقتها: مؤخرتها.

٤٩	لكن عيونُ العِدا تُبدي المَحاسِنَ في	ثوبِ المساوئ فاعجب من تقُّلبِه [٤٤]
٥٠	أُنظر بعينِ الرِّضا تُبصر بها عجباً	فأعيُن السُّخطِ عُمْيٌ عن تعجُّبِه

تهمة الحشو والتجسيم والرد عليها

٥١	وَسَتَ بالحَشو أهل الحقِّ إذ ملأوا	وظائفَ العلمِ من قولٍ بأطيَبِه [٤٥]
٥٢	قومٌ أتاهُم صحيحُ النَّقلِ فاتَّبعوا	سبيلَهُ وحَموهُ من مُكذِّبِه [٤٦]
٥٣	واثبتوا لإله العرشِ ما ثبتت	فيه النُّقول بلا شِبْهٍ يُقاسُ بِه [٤٧]
٥٤	فرامَ بعضُ أولي التعطيلِ دَحضُهمُ	فآبَ من قَصدِه الأدنى بأخْيَبِه [٤٨]

---

(٤٤) بمعنى: وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة... ولكن عين السُّخطِ تُبدي المساويا

(٤٥) وسمت بالحشو: اتهمت شيخ الإسلام به. وقد تقدم في البيت (٤٣) ما له وما عليه.

(٤٦) قال الإمام ابن القيم بمعناه:

ما ذنبهم واللهِ إلا أنهم ... أخذوا بوحي الله والفُرقانِ

(٤٧) النقول: نصوص الكتاب والسنة.

وقال الإمام الناظم: السرّمري في "نهج الرشاد في نظم الاعتقاد" (ص ٣٠ –٣٣):

أُقِرُّ بِأَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ ... تَعَالَى عَنِ التَّشْبِيهِ والحَصْرِ

سَمِيعٌ بَصِيرٌ لَّيسَ شَيءٌ كَمِثْلِهِ ... كَمَا جَاءَ فِي الْقُرآنِ إِنْ كَنْتَ من تَدْرِي

فَسُبْحَانَهُ مِنْ مَالِكٍ مُتَكَبِّرٍ ... تَفَرَّدَ دُونَ الْخَلْقِ بِالْعِزِّ وَالْقَهْرِ

وَيَنْزِلُ لَا تَكْيِيفَ لِي فِي نُزُولِهِ ... تَعَالَى سَمَاءَ الدُّنْيَا يَقُولُ: سلوا سِتْرِي

وَذَلِكَ إِذْ يَبْقَى مِنَ اللَّيْلِ ثُلْثُهُ ... كَذَلِكَ حَتَّى يُفْصَلَ اللَّيْلُ بِالْفَجْرِ

وَرَبِّي كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ اسْتَوَى ... عَلَى الْعَرْشِ أَمَّا كَيْفَ ذَاكَ فَلَا أَدْرِي

وَمَذْهَبُنَا لَا كَيْفَ لَا مِثْل لَا لِمَا... بِالْإِقْرَارِ وَالْإِمْرَارِ مِنْ غَيْرِ مَا فَسْرِ

(٤٨) أولي التعطيل: الذين ينفون صفات الله تعالى. دحضهم: إبطالهم. وآب: رجع.

٥٥	فكلُّ مَن قصُرت في العلم رُتبَتُه	وقلَّ ديناً تجرَّا في توثُّبِه [٤٩]
٥٦	فأحمدُ المُصطفى عُودي وقيل له:	مُذمَّمٌ وتغالوا في تجنُّبِه [٥٠]
٥٧	وقيل ساحرٌ أو مجنون أو رجُلٌ	مُعلَّمٌ، كاهنٌ، يسمُو بأَكُعبِه [٥١]
٥٨	لو كان الاسم يَشينُ الفِعلَ في رجُلٍ	لشان خير البرايا من مُلقِّبِه [٥٢]

وقال ابن القيم –رحمه الله في "نونيته":

والله ما قال امرؤ منا بـ ... ـأن الله جسم يا أولي البهتان

والله يعلم أننا في وصفه ... لم نعد ما قد قال في القرآن

أو قاله أيضا رسول الله ... فهو الصادق المصدوق بالبرهان

أو قاله أصحابه من بعده ... فهم النجوم مطالع الإيمان

سموه تجسيما وتشبيها فلسنا ... جاحديه لذلك الهذيان

(٤٩) تجرأ في توثُّبه: استيلائه ظلماً وعدواناً.

(٥٠) قال الشاعر:

قيل: إن الإله ذو ولدِ ... وقيل: إن الرسول قد كهنا

ما نجا الله والرسول معا ... من لسان الورى فكيف أنا؟

(٥١) يسمو بأكعبه: جمع الكعب، وهو العظم الناشز فوق القدم. وكذا الكعب ما يلعب به. أي يسموا بألاعيبه وأوهامه.

(وقيل: ساحر... إلخ) ولقد ردَّ الله تعالى على الكفار في تلقيبهم النبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الألقاب؛ فقال سبحانه: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} (الذاريات: ٥٢)، وقال جل وعلا: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ، قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ} (الطور: ٢٩ – ٣١).

(٥٢) يشين: يعيب. وقال الإمام ابن قيم الجوزية في "نونيته":

٥٩	أما حوادثَ لا مَبدا لأولها	فذاكَ من أغربِ المحكي وأعجَبِهِ (٥٣)

تجد المعطل لاعناً لمجسم ... ومشبه لله بالإنسان

والله يصرف ذاك عن أهل الهدى ... كمحمد ومذمم إسمان

هم يشتمون مُذمماً ومحمد ... عن شتمهم في معزل وصيان

صان الإله محمداً عن شتمهم ... في اللفظ والمعنى هما صنوان

كصيانة الأتباع عن شتم ... المعطل للمشبه هكذا الإرثان

والسب مرجعه إليهم إذ هم ... أهل لكل مذمة وهوان

وكذا المعطل يلعن اسم مشبه ... واسم الموحد في حمى الرحمن

(٥٣) أما حوادث لا مبدأ لأولها.

بيان مسألة حوادث لا أول لها

فقد حصل لغطٌ كبيرٌ في هذه المسألة بين الطوائف؛ فجلّاها شيخ الإسلام في عددٍ من كتبه. وبيَّن مذهب أهل السنة والحديث، مع الرد على آراء الفلاسفة والمتكلمين، ورماه خصومه، بأن القول: "بإمكان حوادث لا أول لها" يؤدي إلى التسلسل الممتنع والدور الممتنع، ويؤدي إلى القول بقدم العالم، فاتهموه بشيء هو باطل عندهم اتباعاً لمذهب أهل الكلام المذموم، وتمسكهم بآرائهم، ولكنه حقٌّ عند شيخ الإسلام في ضوء الأدلة من الكتاب والسنة، فصدع بالحق، ولم يخف في الله لومة لائم؛ لأن المسألة وثيقةُ الصلة بإثبات صفات الله تعالى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" ما ملخصه: "فيه ثلاثة أقوال:

* قيل يجوز مطلقاً... ولكن المسلمين وسائر أهل الملل يقولون: إن كل ما سوى الله مخلوق حادث بعد أن لم يكن، وهذا أصحُّ الأقوال.

* وقيل: لا يجوز في الماضي ولا في المستقبل، وهو قول جهم، وأبي الهذيل العلاف، وهذا أضعف الأقوال.

* وقيل: يجوز في المستقبل دون الماضي. وهو قول أكثر أتباع جهم وأبي الهذيل من: الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية، والكرامية، ومن وافقهم" انظر: الصفدية (١/ ١٠ –١١*، ومنهاج السنة (١/ ٤٣٧ –٤٣٨).

هذا القول لا يؤدي إلى الدور أو التسلسل:

وقد ذكر شيخ الإسلام أن القول بوجود حوادث لا أول لها لا يؤدي إلى التسلسل والدور؛ فقال ما ملخصه: "الدور نوعان:

(أحدهما): الدور القبلي السبقي: وهو ممتنع باتفاق العلماء. مثل أن يُقال: لا يكون هذا إلا بعد ذاك، ولا يكون ذاك إلا بعد هذا ... فإن الشيء لا يكون قبل كونه، ولا يتأخر كونه عن كونه.

(والثاني): الدور المعيّ الاقتراني: مثل أن يُقال: لا يكون هذا إلا مع ذاك لا قبله ولا بعده. فهذا جائزٌ كما إذا قيل: لا تكون الأبوة إلا مع البنوة. وقيل: إن صفات الرب اللازمة له لا تكون إلا مع ذاته، وعلمه مع حياته، وقدرته مع علمه، ونحو ذلك". انظر: الصفدية (١/ ٥٢ –٥٤).

وقسم شارح الطحاوية (ص ١٣٥) التسلسل إلى: واجب، وممتنع، وممكن. فقال ما ملخصه:

* فالتسلسل في المؤثرين ممتنع لذاته.

* والتسلسل الواجب: ما دل عليه العقل والشرع من دوام أفعال الرب في الأبد... وكذلك التسلسل في أفعاله سبحانه من طرف الأزل، وأن كل فعلٍ مسبوق بفعلٍ آخر، فإنه لم يزل متكلماً إذا شاء مخلوق أوّل، والخالق سبحانه لا أوّل له، فهو وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق كائنٌ بعد أن لم يكن.

هذا القول لا يؤدي إلى القول بقدم العالم.

وقد حاول خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية أن يلزمونه –لأجل قوله بإمكان حوادث لا أوّل لها –بما لا يلزم منه القول بقدم العالم.

وقد ردَّ شيخ الإسلام في العديد من كتبه على هذا الفكر الفلسفي الملحد، وكفّر من قال بقدم العالم. فقال رحمه الله في مجموع الفتاوى (٢/ ١٨٨):

"ثم يقال لهؤلاء: إن كنتم تقولون بقدم السماوات والأرض ودوامها: فهذا كفر. وهو قول بقدم العالم وإنكار انفطار السماوات والأرض وانشقاقهما وإن كنتم تقولون بحدوثهما فكيف كان قبل خلقهما؟ هل كان منتشرا متفرقا معدوما ثم لما خلقهما صار موجودا مجتمعا؟ هل يقول هذا عاقل؟ . فأنتم دائرون بين نوعين من الكفر مع غاية الجهل والضلال فاختاروا أيهما شئتم".

وفصّل شيخ الإسلام في هذه المسألة أيما تفصيل، وأثبت بالبراهين أنه لا يؤدي إلى القول بقدم العالم، وانظر ذلك في "منهاج السنة (١/ ٢٣٢ –٢٣٤)، والصفدية (١/ ٥٤)، وقال بعد التقرير والتفصيل: "وذلك لا يدلُّ على شيءٍ من قدم العالم".

القول بامتناع حوادث لا أول لها يؤدي إلى التعطيل:

قال شارح الطحاوية (ص ١٣٨): "والقول بأن الحوادث لها أول، يلزم منه التعطيل قبل ذلك، وأن الله سبحانه وتعالى لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلا. ولا يلزم من ذلك قدم العالم، لأن كل ما سوى الله تعالى محدث ممكن الوجود، موجود بإيجاد الله تعالى له، ليس له من نفسه إلا العدم، والفقر والاحتياج وصف ذاتي لازم لكل ما سوى الله تعالى، والله تعالى واجب الوجود لذاته، غني لذاته، والغنى وصف ذاتي لازم له سبحانه وتعالى".

نفي حلول الحوادث بين الرد والقبول

وقال في "شرح الطحاوية" (ص ١٢٩ –١٣٠): "وحلول الحوادث بالرب تعالى، المنفي في علم الكلام المذموم، لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة، وفيه إجمال: فإن أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن –فهذا نفي صحيح. وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية، من أنه لا يفعل ما يريد، ولا

٦٠	قصَّرتَ في الفَهمِ فاقْصُر في الكلام فما	ذا عُشُّكَ ادْرُج فما صَقرٌ كعُنظِبه [٥٤]
٦١	لو قُلتَ قال كذا ثُمَّ الجواب كذا	لَبانَ مُخطئُ قولٍ من مُصوِّبه
٦٢	أجملتَ قولاً فأجملتَ الجواب ولو	فصَّلتَ فصَّلتُ تبياناً لأغرَبه
٦٣	إن قُلتَ كان ولا عِلمٌ لديه ولا	كلامَ ولا قُدرةٌ أصلاً كَفرتَ بهِ [٥٥]

يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته –فهذا نفي باطل".

وراجع تفصيل هذه المسألة في كتاب "دعوة شيخ الإسلام" مبحث (إمكان وجود حوادث لا أول لها) (ص ٢٢٠ –٢٤٥).

(٥٤) عشك: موضع الطائع المصنوع من دقاق الحطب في أفنان الشجر. ماذا عشك ادرج: امضِ ليس لك فيه حق، كما يُقال: (ليس بعضك فادرجي). العنظب: الجراد الضخم. أو الذكر الأصفر منه.

(٥٥) نفت الجهمية المعطلة عن الله تعالى صفاته العلياء. كما قال ابن القيم في "الكافية":

ونفوا كلام الرب جل جلاله ... وقضوا له بالخلق والحدثان

قالوا وليس لربنا سمع ولا ... بصر ولا وجه، فكيف يدان

وكذاك ليس لربنا من قدرة ... وإرادة أو رحمة وحنان

كلا ولا وصف يقوم به سوى ... ذات مجردة بغير معان

وحياته هي نفسه وكلامه ... هو غيره فاعجب لذا البهتان

وكذاك قالوا ما له من خلقه ... أحد يكون خليله النفساني

وخليله المحتاج عندهم وفي ... ذا الوصف يدخل عابد الأوثان

فالكل مفتقر إليه لذاته ... في أسر قبضته ذليل عان

ولأجل ذا ضحى بجعد خالد الـ ... ـقسري يوم ذبائح القربان

٦٤	أو قُلتَ أحَدَثها بعد استحَالتَها	في حقِّه سمتُ نقصٍ ما احتججتَ بِه (٥٦)
٦٥	وكيف يُوجدُها بعدَ استحالتها	منهُ أيقِدرُ ميتٌ رفعَ مِنكَبِه
٦٦	أو قُلتَ فعلُ اختيارٍ منه مُمتنعٌ	ضاهَيتَ قولَ امرئٍ مُغوٍ بأنصُبه (٥٧)
٦٧	ولم يزل بصفاتِ الفِعلِ مُتَّصِفاً	وبالكلامِ بعيداً في تقرُّبِه (٥٨)

(٥٦) سَمْت: صفة. ويلزم على هذا القول من الفساد أن الله عز وجل لم يزل مُعطلاً عن الفعل أو غير قادرٍ عليه، ثم صار فاعلاً وقادراً من غير تجدد سببٍ أصلاً أوجب له القدرة والفعل.

(٥٧) أنصب: جمع النصب، وهي حجارة كانت حول الكعبة تُنصب فيُهل عليها، ويُذبح لغير الله عندها. ضاهيت: شاكلتَ وشابهت.

قال ابن القيم –رحمه الله –في جهم بن صفوان:

وقضى بأن الله كان معطلا ... والفعل ممتنع بلا إمكان

ثم استحال وصار مقدورا له ... من غير أمر قام بالديان

بل حاله سبحانه في ذاته ... قبل الحدوث وبعدها سيان

(٥٨) قال شارح الطحاوية (ص ١٢٧ –١٢٨): "إن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفاً بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل. ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بضده.

ولا يرد على هذه صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها، كالخلق والتصوير، والإماتة والإحياء، والقبض والبسط والطي، والاستواء والإتيان والمجيء، والنزول، والغضب والرضا، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، ولكن أصل معناه معلوم لنا، كما قال الإمام مالك رضي الله عنه، لما سئل عن قوله تعالى: {ثم استوى على العرش}

٦٨	سبحانه لم يزل ما شاء يفعله	في كل ما زمنٍ ما من مُعقِّبه (٥٩)
٦٩	نوعُ الكلام كذا نوع الفِعالِ قديـ	ـمٌ لا المعيَّنُ مِنهُ في ترتُّبِه (٦٠)
٧٠	وليسَ يَفهَمُ ذُو عقلٍ مُقارنَةَ الـ	ـمَفعُولِ مَع فاعلٍ في نَفسِ منصِبه
٧١	يُحبُّ، يبغضُ، يرضى، ثُم يغضبُ، ذا	من وصفِه، أرضِه، بُعداً لمُغضِبِه
٧٢	والخلقُ ليس هو المخلوقُ تحسَبُه	بل مَصدرٌ قائمٌ بالنفسِ فاذْرِ بِه

(الأعراف: ٥٤) كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول (وتتمته: والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة).

وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت، كما في حديث الشفاعة: «إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله» (رواه البخاري ومسلم، عن أبي هريرة). لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن.

ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلما بالأمس لا يقال: إنه حدث له الكلام، ولو كان غير متكلم لآفة كالصغر والخرس، ثم تكلم يقال: حدث له الكلام، فالساكت لغير آفة يسمى متكلماً بالقوة، بمعنى أنه يتكلم إذا شاء، وفي حال تكلمه يسمى متكلما بالفعل.

وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل، ولا يخرج عن كونه كاتبا في حال عدم مباشرته للكتابة".

(٥٩) ما من مُعقبه: ما من شيءٍ جاء بعقبه. وليس أحد يؤاخذ عليه سبحانه وتعالى.

(٦٠) قال شارح الطحاوية (ص ١١٢ –١١٣): "وقد أدخل المتكلمون في أسماء الله تعالى القديم، وليس هو من الأسماء الحسنى، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن: هو المتقدم على غيره... ولم يستعملوا هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدم... وأما إدخال القديم في أسماء الله تعالى، فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام. وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف، منهم ابن حزم".

٧٣	وقولُ كُن ليس بالشَّيء المكوَّنِ والصَّ	غِرُ يَعرِفُ هذا مع تلعُّبِه (٦١)
٧٤	فالمُصطفى قال: كان الله قبلُ ولا	شيءٌ سواهُ تعالى في تحجُّبِه (٦٢)

مؤاخذات أخرى والردُّ عليها

٧٥	وقُلتَ من بعدِ هذا قولَ ذي حَسَدٍ	أخطا الهُدى وتجارى في تنكُّبِه (٦٣)
٧٦	لو كان حيّاً يرى قولي ويسمَعهُ	رددتُ ما قالَ ردّاً غيرَ مُشتبِه (٦٤)
٧٧	كما رددتُ عليه في الطلاقِ وفي	تركِ الزِّيارةِ اقْفُوا إثرَ سَبسَبِه (٦٥)

---

(٦١) وقد ردَّ ابن القيم على نافي صفات الله جل وعلا، قائلاً:

فجحدت أوصاف الكمال مخافة التشـ ... ـبيه والتجسيم بالإنسان

ووقعت في تشبيهه بالناقصات ... الجامدات وذا من الخذلان

الله أكبر هتكت أستاركم ... حتى غدوتم ضحكة الصبيان

(٦٢) أشار به إلى حديث عمران بن حصين –رضي الله عنه –الذي رواه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وفيه: (قالوا جئناك لنتفقّه في الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر، فقال: كان الله ولم يكن شيءٌ قبله...) رواه البخاري.

(٦٣) تجاري في تنكبه: تسابق في عدوله عنه.

(٦٤) من أبيات السُّبكي وكذا البيت الذي يليه. لو كان: أي شيخ الإسلام.

(٦٥) ألف التقي السُّبكي عدَّة رسائل في مسألة الطلاق، ردَّ فيها على اختيارات شيخ الإسلام في هذه القضية المهمة.

ومن رسائل السُّبكي: (الدرة المُضيئة في الردّ على ابن تيمية)، و(نقد الاجتماع والافتراق في مسائل الأيمان والطلاق)، و(النظر المُحقق في الحلف بالطلاق المُعلَّق)، وقد فصَّل شيخ الإسلام القول في هذه المسائل في العديد من كتبه.

٧٨	فضحتَ نفسكَ في هذا المقالِ ولم	تَشعُر وعِجتَ عن المرعى وأخصَبِه [٦٦]
٧٩	عرَّفتنا أن ما قد قُلتَ ليس لوج	ـه الله بل للمِرا أقبح بمَنصِبِه [٦٧]
٨٠	إذ لو أردّت بيان الحقِّ قُلتَ به	في مَحضرِ الخَصمِ أمّا في مُغيّبِه [٦٨]
٨١	ما ذاكَ صدُّك بل خوفُ الجوابِ كما	أُجبِبتَ قبلُ بسَهمٍ من مُصوّبِه [٦٩]
٨٢	ذا شأنُ من لم يُجرِّد صارماً ذكراً	ماضي الغِرارِينِ عَضباً من مُجرّبِه [٧٠]
٨٣	لكن إذ الأَسد الضِرغامُ غابَ عن ال	عَرينِ تسمعُ فيه ضَبحَ ثعلبِه [٧١]
٨٤	كذا الجَبانُ خلا في البَرِّ صاحَ ألا	مُبارِزٌ وتغالى في توثُّبِه [٧٢]

مسألة الطلقات الثلاث

وكذلك ألف السُبكي رداً عليه في مسألة "شد الرحال" في كتابه (شفاء السُّقام في زيارة خير الأنام)؛ فردَّ عليه الإمام الحافظ ابن عبد الهادي في كتابه (الصارم المنكي في الرد على السُّبكي).

أقفوا: أتتبع. إثر: بعد. السبسب: المفازة أو الأرض المستوية البعيدة. أقفو إثر سبسبه: أتتبع غرائبه وشرائده.

(٦٦) عِجْتَ: أي انحرفت عنه.

(٦٧) للمراء: الخصام. أقبح بمنصبه: ما أقبح منصبه.

(٦٨) محضر الخصم: حضور المخاصم.

(٦٩) صدّك: منعك.

(٧٠) ماضي الغِرارين: ماضي الحدَّين. الغرار: حد الرمح والسهم والسف. عضباً: قاطعاً.

(٧١) العري: مأوى الأسد. ضبح وضباح: صوت الثعلب.

(٧٢) خلا: انفرد بنفسه. مبارز: مقاتل. تعالى: بالغ في ظلمه وعدوانه. ومثله قول الشاعر:

وجبانُ قلبٍ أعزلٍ قد رام يأ ... سرُ فارساً شاكي السلاح بهزّهِ

٨٥	ولو سمعتَ جوابَ الردِّ رُحتَ فتىً	من أعظمِ الخلقِ عن جُرمٍ وأتوَبِه
٨٦	وقد كفاني أبو العبَّاسِ كُلفَتَهُ	كذا أرَحْتُ لِساني غيرَ مُتعِبِه (٧٣)

(٧٣) أبو العباس: كنية شيخ الإسلام. وكانت له –رحمه الله –اختيارات فقهية، وقد جرت له بسبب الإفتاء بها فتنٌ وقلاقل، ومنها:

* قوله: (فيمن حلف بالطلاق يُكفِّر).

* (وأن الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة.)

* (وأن الطلاق المحرم لا يقع).

وله في ذلك مصنفات ومؤلفات كثيرة، منها:

* (تحقيق الفرقان بين التطليق والأيمان).

* (الفرق المبين بين الطلاق واليمين).

* (قاعدة أن جميع أسمان المسلمين مكفرة).

* (قاعدة في التقرير أن الحلف بالطلاق من الأيمان حقيقةً).

* (التفصيل بين التكفير والتحليل).

* (اللمعة).

* مجموع فتاواه (المجلد الثالث –الطلاق).

وتوضح هذه الكتب والرسائل والفتاوى والقواعد والأجوبة مذهب شيخ الإسلام في مسائل الطلاق المذكورة والمختلف فيها في ضوء الأدلة من جهة، وتردُّ على شبهات معاصريه حولها من جهة أخرى.

ولا يفوتني أن أذكر بهذه المناسبة: أن الملك (خدا بنده) تحول من مذهب أهل السنة إلى مذهب الشيعة بسبب مخالفة المفتي لحديث النبيِّ صلى الله عليه وسلم في الطلاق الثلاث، واستغله ابن المطهر الحلي، فأفتى حسب حديث النبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ فحدث ما

٨٧	ووافقَتْهُ سَراةُ النَّاسِ عن كتبٍ	من أهل مذهبِهِ أو غير مذهبه (٧٤)
٨٨	من أهلِ بغدادَ والآياتُ شاهِدةٌ	لهُم وللحقّ مِصباحٌ يبينُ به (٧٥)
٨٩	عِبتَ الذي قال ما فيه الخلافُ من إيـ	قاعِ الثلاثِ ولو أفتى بأغربِهِ (٧٦)
٩٠	وقُلتَ: تنكحُ زوجاً غَيرَهُ ونكا	حُها مَه الخُلفِ باقٍ في تَذبذُبِه (٧٧)
٩١	وكيفَ تنكِحُ مَن لم تبْرَ عِصمتُها	بلا خلافٍ لِشخصٍ مع تجنُّبِه (٧٨)

مسألة شدِّ الرحال إلى القبور

حدث. وهذا هو جزاء من يُخالف السُّنة: {فلحذر الذين يُخالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنة أو يُصيبهم عذابٌ أليم} (النور: ٦٣).

(٧٤) سراة الناس: أعلاهم وأفضلهم.

وقد وافق كبار العلماء في عصورهم شيخ الإسلام في مسائل الطلاق، وأطال تلميذه النحرير ابن قيم الجوزية النفس في كتابه "إغاثة اللهفان"، و"زاد المعاد"، و"إعلام الموقعين" بما لا مزيد عليه. وأيدهما من علماء السنة وفقهاء الحديث بعدهما: الإمام الشوكاني، وصديق حسن خان، وصاحب عون المعبود، وصاحب تحفة الأحوذي، وغيرهم من متأخري علماء الهند الأعلام.

(٧٥) من أهل بغداد: وذكر هذه الموافقة في البيت (٩٢).

(٧٦) راجع مبحث الطلاق الثلاث بلفظ واحد في "إغاثة اللهفان" (١/ ٢٨٣) و "إعلام الموقعين" (٣/ ٤١ -٤٣)، و "زاد المعاد" (٤/ ٥١ -٦٥)، كلها لابن قيم الجوزية، وفيها تقرير مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمهما الله تعالى -في هذا الموضوع.

(٧٧) مع الخلف: مع الاختلاف.

(٧٨) لم تبرأ عصمتها: ما برأت من ذمة زوجاه. "واستبرأها" لم يدخلها حتى تحيض.

٩٢	وفي الزِّيارةِ لم تُنصِف رددتَ على	ما لم يَقُلهُ ولم تَمُرر بسبَسهِ (٧٩)

(٧٩) ولم تمرر بسبسبه: أشار إلى قول السُّبكي (أقفو إثر سبسبه) في البيت رقم (٧٧) المتقدم آنفاً.

ولما تطرقت البدع إلى أوساط المسلمين، وبدأوا يعتقدون في المشاهد والقبور والأضرحة والمزارات ما لم يُنزل الله به سلطاناً، من شد الرحال إليها، والاستغاثة بأهلها، صارت هذه القضية مفروغاً من الكلام فيها عند العلماء، فضلاً عن العامة من الناس، واعتبرت من القضايا الحساسة التي تُستغل لإثارة غضب الجماهير ضد من يتكلم فيها.

ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله –الذي أُشرب قلبه بالإيمان الخالص، والعقيدة الصحيحة لما سئل عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة حينما كان بالقاهرة، فردّ عليه رداً مُستنطقاً من الكتاب والسنة، ونهى عنه استدلالاً بحديث النبيِّ صلى الله عليه وسلم: (لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى) رواه البخاري ومسلم، عن أبي هريرة به.

فاستغل هذه الفتيا سنة ست وعشرين وسبعمائة، القاضي المالكي تقي الدين الإخنائي (ت ٧٥٠ هـ) بعد صدورها ببضع عشرة سنة، وزاد فيها ونقص، ورماه بالتنقيص بمنزلة النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وحرّض السلطان عليه تقرُّباً إليه، وكسباً لعواطف الجماهير من الناس أيضاً، وألف رسالةً سماها (المقالة المرضية في الردَّ على من يُنكر الزيارة المُحمدية).

فرد شيخ الإسلام ابن تيمية على الإخنائي وغيره ممن ردَّ عليه في هذه المسلة مثل (الزملكاني، والسبكي، وابن الحاج، وغيرهم) في العديد من كتبه، ومنها:

* (الرد على الإخنائي، واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية).
* (المنسك القديم والجديد).
* الجواب الباهر في زوار المقابر).

٩٣	ردًّا مُلخَّصُه أشياءَ أذكُرها	إما حديثٌ ضعيفٌ عندَ مَطلبِه [٨٠]
٩٤	وإما صحيحٌ، ولكن لا دليلَ به	على مُرادِك بل هَدمٌ لمَنصِبهِ
٩٥	إما بِمُجمَلِ لفظٍ قولُ خصمِكَ مِن	أقوى المَقالِ به قَسْراً وأصوَبِه [٨١]

(٨٠) والعجب أن مخالفي شيخ الإسلام لم يستفيدوا من كتبه المليئة بالاستدلال بنصوص الكتاب والسنة على مراده الواضح، بل ردَّدوا ما عرفوا من الأدلة، وتناقلوها فيما بينهم من دون التأكد من صحتها أو ضعفها.

وبيّن العلامة الحافظ ابن عبد الهادي في كتابه (الصارم المنكي في الرد على السُّبكي) ما يؤيد ما ذهب إليه ناظم هذه القصيدة، من إهماله النظر في الحديث: صحةً وضعفاً وإلزامه شيخ الإسلام ما لا يلزم؛ فقال (ص ١٣): "أما بعد: فإني وقفت على الكتاب الذي ألفه بعض قضاة الشافعية في الرد على شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية في مسألة شد الرحال، وإعمال المطي إلى القبور، وذكر أنه كان قد سماه (شن الغارة على من أنكر سفر الزيارة) ثم زعم أنه اختار أن يسميه (شفاء السقام في زيارة خير الأنام)، فوجدت كتابه مشتملاً على تصحيح الأحاديث المضعفة والموضوعة، وتقوية الآثار الواهية والمكذوبة، وعلى تضعيف الأحاديث الصحيحة الثابتة والآثار القوية المقبولة، وتحريفها عن مواضعها وصرفها عن ظاهرها بالتأويلات المستنكرة المردودة، ورأيت مؤلف هذا الكتاب المذكور رجلاً ممارياً معجباً برأيه متبعاً لهواه...".

وقال ابن عبد الهادي أيضاً (ص ١٥): "ولقد أخبرني الثقة أنه ألف هذا الكتاب لما كان بمصر قبل أن يلي القضاء بالشام بمدة كبيرة ليتقرب به إلى القاضي الذي حكى عنه هذا الكذب ويحظى لديه فخاب أمله ولم ينفق عنده، وقد كان هذا القاضي (وهو ابن مخلوف) الذي جمع المعتر (أي السُّبكي) كتابه هذا لأجله من أعداء الشيخ المشهورين".

(٨١) قسراً: قوة وشدة.

٩٦	إما بلا علمَ لي والجهلُ غايتُه	أيُعذرُ الشَّخصُ فيما لا أحاطَ بِه (٨٢)
٩٧	فأيُّ ردٍّ لعمري قد رددّتَ وما	ذا قُلتَ إذ قُلتَ أقفو إثرَ سَببِه
٩٨	إن كان عِندكَ في شدِّ الرحالِ إلى الـ	قبورِ نقلٌ فعَارِضْهُ بِمَوكِبِه
٩٩	لِيَعرِفَ الحقّ من كان أخا نَظَرٍ	خالٍ من العِلم ناءٍ عن تعصُّبِه (٨٣)
١٠٠	أنَّي وذلك كالعنقاءِ في عَدَمٍ	وكالسَّمندلِ يُحكى مع تغيُّبِه (٨٤)
١٠١	ما أنتَ إلا كما قد قِيلَ في مَثَلٍ	خالِف لتُعرَف مشهورٌ لِضُرَّبِه (٨٥)
١٠٢	فشيخُنا بِصَريحِ الحقّ حُجَّتُه	ونَقدِ نقلِكَ زيْفٌ في تقلُّبِه (٨٦)
١٠٣	فَمن أحقَّ بحقّ القول إن ظهرَ الـ	إنصافُ مُرتفعاً من فوق مَرقَبِه (٨٧)

مناقرات أخرى والرد عليها

١٠٤	وقُلتَ ما بَعدَهُ للردِّ فائدةٌ	هذا وجوهرُهُ مما أُضنُّ بِه (٨٨)

---

(٨٢) أيعذر الشخص: أيُقبل له عُذر.

(٨٣) ناء: بعيد.

(٨٤) السمندل: طائرٌ إذا انقطع نسله وهرم، ألقى نفسه ي الجمر فيعودُ إلى شبابه. وقيل: هو دابة تدخل النار فلا تحرقه. وفي القاموس: "طائرٌ في الهند لا يحترق بالنار". فالعنقاء والسمندل والغنجول طيورٌ معروفة الأسماء مجهولة الأجسام، بضرب بها المثل في الغرابة والندرة والقلة.

(٨٥) لضرَّبِه: لأصنافه وأنواعه.

(٨٦) فشيخنا: أي شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية حجته صريحة داحضة، وأدلتك ضعيفة مُزيَّفة مُنقلبة عليه، كما تقدم معناه في البيت (٩٣).

(٨٧) فوق مرقبه: علوه.

(٨٨) (وقلتَ) أشار الناظم إلى قول السبكي: (وبعده لا أرى للردِّ فائدةً) يعني على الحلي. مما أضنُّ به: مما يُخصُّ بي.

١٠٥	ماذا الكلامُ وما معناهُ قُلْهُ لنا	أمدْحٌ أن هجْوٌ اعرِب عن مُعرَّبِه
١٠٦	ما ذلك الجوهرُ المضنونُ ويحكَ هل	تعنِي به الشَّيخ أو ردّاً لمذهبِه (٨٩)
١٠٧	فإن يكُ الشَّيخ ماذا الطعنُ فيه أو الـ	ـجوابُ عن قولِه نورٌ بغيهبِه (٩٠)
١٠٨	والردُّ يَحسُن في حالين: واحدةٍ	لِقطع خَصمٍ قويٍّ في تغلُّبِه (٩١)
١٠٩	وحالةٍ لانتفاعِ الناسِ حيثُ بهِ	هُدىً وربحٌ لديهم في تكسُّبِهِ
١١٠	كتمُ العلومِ حرامٌ لا يجوزُ لدى	علمِ يَضنُّ بعلمٍ عند طُلَّبِه (٩٢)
١١١	والردُّ في الحالةِ الأولى مضى هدراً	فاستدرِكِ الحالَ الأخرى قبل مَذهَبِه (٩٣)
١١٢	فقُل ورُدَّ إن اسطعتَ السبيل إذاً	وانفعْ بِه النّاسَ كي تحظى بأثوَبِه (٩٤)
١١٣	حاشا وكلا وأنّى بالسبيلِ إلى	ردِّ الصوابِ، وقد وافى بكبكَبِه (٩٥)

---

(٨٩) المضنون: الغالي.

(٩٠) فإن يك الشيخ: عنيت به شيخ الإسلام ابن تيمية. فقل: ما هو الطعن فيه؟ وما هو الجواب عن أقواله وأدلته؟ غيهبه: ظلامه.

(٩١) هذا البيت والذي يليه من أبيات السُّبكي.

(٩٢) كتم العلوم حرامٌ: روى الحاكم في المستدرك (١/ ١٠٢)، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم، قال: (من كتم علماً ألجمه الله بلجامٍ من نار يوم القيامة"، وصححه، ووافقه الذهبيُّ في "التلخيص"، وصححه الألباني في "صحيح الجامع". يضن به: يخصُّ به نفسه دون طلبة العلم.

(٩٣) الحالة الأولى: هي قطع الخصم وإفحامه. راجع البيت رقم (١٠٨). مضى هذراً: ذهب سُدى. والحالة الأخرى: هي انتفاع الناس، كما تقدم في البيت (١٠٩).

(٩٤) تحظى بأثوبه: تتمكن مما هو أكثر ثوباً.

(٩٥) كبكبه: جماعته.

١١٤	قُل كي ترى سنناً تَستنُّ في سَنَنِ الـ	هُدى تُنكِّسُ جَهماً عن توثُّبِه [٩٦]
	ورهْطُهُ وَتُرِيكَ الحقّ أظهرَ مِن	شمسِ الضُّحى وَهِلالاً وسطَ غيهَبِه

علم الكلام ما له وما عليه

١١٦	وقُلتَ إذ ضاق نهجُ الذمِّ عنك لَهُ	ما يُوهِمُ الغِمرَ طعناً في جُويْنِبِه [٩٧]
١١٧	وليس للناسِ في عِلمِ الكلام هُدىً	بل بِدعةٌ وضلالٌ في تطلُّبِه [٩٨]
١١٨	أأنتَ أم هوَ ردَّ المَنطقِ الأفنِ الـ	ـمُغوِي بأصوَبِ مَنقولٍ وأصلَبِه [٩٩]

---

(٩٦) سنن الهدى: نهجه وجهته. تنكَّس جهماً: تقلبه رأساً على عقب في ظلمته واستيلائه.

(٩٧) الغمر: من لم يُجرب الأمر من الحاقدين. جُوينب: تصغير الجانب.

(٩٨) من أبيات السُّبكي. وعلم الكلام: علمٌ يبحث عن الأعراض الذاتية للموجود من حيث هو على قاعدة الإسلام. وعلم الكلام المذموم ما يجعل فيه العقل عياراً على الكتاب والسنة. انظر تعريفات الجرجاني (ص ١٥٦).

وقال الناظم في "نهج الرشاد من نظم الاعتقاد":

ولا خير في علم الكلام لأنه .... خلاف كلام المصطفى الطاهر المُطهَّرِ

أدلته لا من كتابٍ وسنة .... بل من كلام الأخطل الفاجرِ العرّ

يدور على التعطيل لا دَرَّ درّه ... بتمويه قولٍ في المخارج مُزوَّرُ

(٩٩) الأفنِ: الذي يُعجبك ولا خير فيه. أصلبه: أقواه وأشده.

وقد أكثر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله –الرد على المناطقة في العديد من مؤلفاته، وألف كتاباً مستقلاً في مناقضة أصوهم وقواعدهم، أسماه (نقض المنطق)، وهو مطبوع مستقلاً، وضمن مجموع "الفتاوى"، وهو كتابٌ مهمٌ جداً في بابه.

وقال الناظم السرّمري في "نهج الرشاد":

وَيَكْفِي سِوَايَ أَنَّهُ مُتَمَسِّكٌ ... بِتَعْلِيمِ عِلْمِ الْمَنطِقِ السَّيئِ النَّشْرِ

١١٩	فالشَّيخُ ما احتجَّ مِن علم الكلام بما	يُخالفُ النَّقلَ بل تكثيرُ مِقنَبِه (١٠٠)
١٢٠	أراد يُعلمُ شيخَ الرفضِ أن جمـ	ـع الخلقِ ردَّ عليه في تألُّبِه (١٠١)
١٢١	وطالما دلَّ أهلُ العلمِ قاطبةٌ	بالنقل والعقل تقريراً لأصوبِه
١٢٢	وَهَبْهُ أخطا ألم تعلم بأنَّ لهُ	أجرُ اجتهادٍ فقصِّر في تثرُّبِه (١٠٢)
١٢٣	لقد تحجَّرتَ فيه واسعاً وكذا	ك الشَّافعيُّ الذي تُعزى لمذهبِه (١٠٣)
١٢٤	ثُمَّ اختتمتَ بقولٍ رُدَّ آخرُه	على مُقدَّمِه نكصاً لأعقُبِه (١٠٤)

عَقِيدَتُهُ أَنَّ الْكِتَابَ وَسُنَّةَ الْـ ... نَبِيِّ مَعاً لَيْسَا دَلِيلاً عَلَى أَمْرِ
وَلَكِنْ دَلِيلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عِنْدَهُ ... نَتَائِجُ أَفْكَارٍ عَلَى عَقْلِهِ تَجْرِي
وَذَاكَ دَلِيلٌ فِي الشَّرِيعَةِ بَاطِلٌ ... لِأَنَّا عَرَفْنَا اللهَ بِالنَّقْلِ لَا الْفِكْرِ
وَمَعْرِفَةُ الرَّحمَنِ بِالْعَقْلِ فِرْيَةٌ ... عَلَيْهِ وَلَيْسَ الْعُرْفُ بِالشَّيءِ كَالنّكْرِ

(١٠٠) تكثر مقنبه: أي مجموعة النقل، والنصوص.

(١٠١) شيخ الرفض: ابن مطهّر الحلي، صاحب "منهاج الكرامة". تألبه: فساده وتحرّضه.

(١٠٢) هبه: احسبه. أجر اجتهاد: روى البخاري ومسلم في "صحيحهما"، عن عمرو بن العاص، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا حكم الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر). تثربه: ملامه وتعييره.

(١٠٣) تحجرت: ضيقت عليه واسعاً. تُعزى لمذهبه: تنسب إليه. والخطاب للسُّبكي، وهو شافعي المذهب. ومعنها: اعلم أنك إذا تحجرت واسعاً على شيخ الإسلام في اجتهاده، فالإمام الشافعي –رحمه الله –لم يُحجر على مُجتهدٍ ذلك الوسع.

(١٠٤) نكصاً: رجوعاً. يُقال: نكص على عقبيه: رجع عما كان عليه من الخير.

الانتصار لشيخ الإسلام وبيان علمه وفضله وزهده وتقواه

١٢٥	ولي يدٌ فيه لولا ضعفُ سامعه	جعلتُ نظمَ بسيطي في مُهذَّبِه [١٠٥]
١٢٦	عبتَ الكلامَ بَدياً وافتخرت به	أخيراً اعْجَب لبانِيه مُخرِّبه [١٠٦]
١٢٧	زعمتَ فيه ضلالاً ثُم قلتَ ولي	فيه يدٌ بُسطَت، جهلٌ بَجِحْتَ به [١٠٧]
١٢٨	هذا لعمرِي كراماتٌ لصاحبنا	إذ صدَّ شانِئَهُ عن كُلِّ مأرِبه [١٠٨]
١٢٩	وليس هذا بحمد الله أوَّلةٌ	من الكرامات في أصحابِ يَثرِبِهِ [١٠٩]

الانتصار لشيخ الإسلام ابن تيمية وبيان علمه وفضله وورعه وتقواه

١٣٠	وقعتَ في الشيخ إذ الروافضَ في	قَعرِ الحَضيضِ وكانوا فوقَ مَرقَبِهِ [١١٠]
١٣١	أوهمتنا فيكَ رفضاً في كلامِكَ وال	إنسانُ قد يُبتلى من تحتِ مِذرَبِه [١١١]
١٣٢	وذاتُ صدرِ الفتى تبدو لصاحِبه	من فرحٍ تارةً أو من تغضُّبِهِ [١١٢]

---

(١٠٥) من أبيات السُّبكي. لي يدٌ فيه: لي مهارة في علم الكلام. بسيطي: البسيط هو ثالث بحور العروض، ووزنه (مُستَفعِلن فاعِلن) أربع مرات.

(١٠٦) بديّاً: ابتداءً.

(١٠٧) زعمتَ فيه: في علم الكلام. بجحتَ به: فرحت به.

(١٠٨) لصاحبنا: شيخ الإسلام ابن تيمية. شانئه: خصمه. مأربه: حاجته.

(١٠٩) يثرب: اسم المدينة المنورة.

(١١٠) وقعت في الشيخ: شيخ الإسلام. قعر الحضيض: غور الأرض. فوق مرقبه: فوق رقبته.

(١١١) أوهمتنا: بمعنى من حيث إنك تقع في شيخ الإسلام الذي ردَّ على الروافض وأبان فساد مذهبهم. مِذربه: لسانه. ويُقال: لسانك حصانك، إن صنته صانك، وإن خنته خانك.

(١١٢) ذاتُ صدر الفتى: ما يُكنه في صدره من الفضائل أو الرذائل.

١٣٣	ولا اعتبار بنزرٍ من هُجائهم	دِينُ التقيَّةِ غَالوا في تلزُّبه (١١٣)
١٣٤	وقد كفانا إما الوقت أمرَهُم	بالردِّ إذ سار في شرقٍ ومغربه (١١٤)
١٣٥	ففضلُه كضياءِ الشَّمسِ مُضحيَةٌ	رأد الضُّحى ظاهرٌ يرمي بأشهُبِه (١١٥)
١٣٦	أبدى أُصول الهُدى للناسِ واضحةً	كالبدر حين تجلَّى وسطَ غيهبِه (١١٦)
١٣٧	سارت تصانيفُه في العالمين مَسيـ	ـر النَّيرِيّنِ فاقدِر (عر لـه) (١١٧)

---

(١١٣) نزر: قليل من الكلام يدلُّ على عيٍّ. دين التقيَّة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "منهاج السنة النبوية" (١/ ١٥٩) ما ملخصه: "والرافضة تجعل هذا في أصول دينها، وتحكي هذا عن أئمة أهل البيت الذين برّأهم الله عن ذلك؛ حتى يحكوا ذلك عن جعفر الصادق، أنه قال: "التقية ديني ودين آبائي"، -وقد نزّه الله المؤمنين من أهل البيت وغيرهم عن ذلك، بل كان من أعظم الناس صدقاً وتحقيقاً للإيمان، وكان دينهم التقوى لا التقيّة". تلزُّبه: لحوقه ولصوقه وثبوته.

(١١٤) إمام الوقت: شيخ الإسلام. بالرد: رده على الروافض في كتابه "منهاج السنة".

(١١٥) مُضحية: ظاهرة بادية. أشهبه: جمع شهاب، وهو شعلة من النار ساطعة.

(١١٦) أصول الهدى: ما من مسألة لغط فيها الناس إلا وأبدى فيها شيخ الإسلام رأيه المستنبط من نصوص الكتاب والسنة، وجلّاها من غير أن يخاف في الله لومة لائم. وهذا لا يحتاج إلى دليل.

(١١٧) مسير النيرين: الشمس والقمر. قال الشوكاني في "البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع" (١/ ٦٥): "إنه بعد موته عرف الناس مقداره، واتفقت الألسن بالثناء عليه إلا من لا يُعتدُّ به، وطارت مصنفاته، واشتهرت مقالاته... وبلغت تصانيفه نحو أربعة آلاف كراسة أو أكثر". وذيل الشطر الثاني من البيت وقع في الأصل بدون نقط، والكلمات غير مقروء، قلت (محمد حنونة): يمكن أن نضع مكانها: (غير مُشتبه).

١٣٨	حوى العلوم مُجداً في تطلُّبها	إذ غيرُه المالُ أضحى جُلُّ مطلبِه (١١٨)
١٣٩	لم يعلموا علمَهُ من أجل ذا حَسدوا	والناسُ أعداءُ ما لا يعلمون بهِ (١١٩)
١٤٠	لم يثنِهم عنه دينٌ ولا ورعٌ	عَموا وضُمّوا ولجُّوا في تأنُّبِه (١٢٠)

---

(١١٨) حوى العلوم: أي جمعها فظاً وفهماً واستيعاباً. والمقصود بالعلوم: أي الدينية.

قال الحافظ ابن سيد الناس اليعمري كما جاء في "الدرر الكامنة لابن حجر" (١/ ١٥٦): "حداني –يَعْنِي الْمزي –على رُؤْيَة الشَّيْخ الإِمَام شيخ الْإِسْلَام تَقِيّ الدّين فَأَلْفَيْته مِمَّن أدْرك من الْعُلُوم حظاً وَكَانَ يستوعب السّنَن والْآثَار حفظا إِن تكلم فِي التَّفْسِير فَهُوَ حَامِل رايته، أَو أفتى فِي الْفِقْه فَهُوَ مدرك غَايَته، أَو ذَاكر فِي الحَدِيث فَهُوَ صَاحب علمه وَذُو رِوَايَته، أَو حَاضر بالملل والنحل لم يُرَ أوسع من نحلته فِي ذَلِك، وَلَا أرفع من درايته برز فِي كل فن على أَبنَاء جنسه، وَلم تَرَ عين من رَآهُ مثله، وَلَا رَأَتْ عينه مثل نَفسه".

وقال الشوكاني في "البدر الطالع" (١/ ٦٤): "أنا لا أعلم بعد ابن حزمٍ مثله، وما أظنُّ سمح الزمان ما بين عصر الرجلين بمن شابههما أو يُقاربهما".

(١١٩) كما قال الشاعر:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... والناسُ أعداءٌ له وخصوم

(١٢٠) لم يثنهم عنه: لم يردّهم من الحسد له والحقد عليه. لجوا في تأنُّبه: خاضوا في عيبه والتشنيع عليه. قال الحافظ ابن سيد الناس كما في "الدرر الكامنة" (١/ ١٥٧) بعدما ذكر علمه وفضله: "... إلى أن دبَّ إليه من أهل بلده داء الحسد، وألَّب أهل النظر على ما يُنتقد عليه من أمور المعتقد؛ فحفظوا عنه في ذلك كلاماً أوسعوه بسببه ملاماً...ثم نازع طائفةً أخرى يُنسبون من الفقر إلى طريقة... فآضت إلى الطائفة الأولى من منازعيه، واستعانت بذوي الضغن عليه من مقاطعيه؛ فوصلوا بالأمراء أمره، وأعمل كل منهم في كفره فِكرَه، فرتَّبوا المحاضر، وألبوا الرويبضة للسَّعي بها بين الأكابر".

١٤١	إمامُ صدقٍ له في العلم مرتبةً	شمًّا بمعجَمِه فيها ومُعرَبِه (١٢١)
١٤٢	بَدت له زينةُ الدُّنيا وزهرتها	فردَّها وتمادى في تجنُّبِه (١٢٢)
١٤٣	وغيرُه بَذلَ الدينَ المُكرَّمَ في	تحصيلها وتناهى في توثُّبِه (١٢٣)

---

(١٢١) شماء: عالية. ولا ريب أن شيخ الإسلام كان إمام صدقٍ في عصره، وصار باحتماله المحن والشدائد مثلاً في الديانة والصدق، قال الإمام الشوكاني في "البدر الطالع" (١/ ٧٢): "قد أثنى عَلَيْهِ جمَاعَة من أكَابِر عُلَمَاء عصره فَمن بعدهمْ ووصفوه بالتفرد وأطلقوا في نَعته عِبَارَات ضخمة وَهُوَ حقيق بِذَاكَ وَالظَّاهِر أنه لَو سلم مِمَّا عرض لَهُ من المحن المستغرقة لأكْثر أيَّامه المكدرة لذهنه المشوشة لفهمه لَكَانَ لَهُ من المؤلفات والاجتهادات مَا لم يكن لغيره".

(١٢٢) تمادى في تجنبه: تغالى في بعده عنها. قال الشهاب ابن فضل الله كما في "الدرر الكامنة" (١/ ١٥٢): "لما قدم ابْن تَيْمِية على الْبَرِيد إِلَى الْقَاهِرَة فِي سنة سَبْعمِائة نزل عِنْد عمي شرف الدّين وحض أهل المملكة على الْجِهَاد؛ فَأَغْلَظ القَوْل للسُّلْطَان والأمراء ورتبوا لَهُ فِي مقرّ إِقَامَته فِي كل يَوْم دِينَاراً ومخفقة طَعَام فَلم يقبل شَيْئاً من ذَلِك، وَأرْسل لَهُ السُّلْطَان بقجة قماش فَردهَا".

(١٢٢) تناهي في ثوبه: جاوز الحد ي استيلائه على الدنيا.

* تقدم في شرح البيت (٩٣) أن السُّبكي ألف كتاب "شفاء السقام" رداً على شيخ الإسلام في مسألة "شد الرحال إلى القبور" ليتقرب به إلى القاضي الذي كان من أعدائه؛ فخاب أمله، ولم ينفَق عنده. انظر "الصارم المنكي" (ص ٢١).

(١٢٣) تمادى في تجنبه: تغالى في بعده عنها. قال الشهاب ابن فضل الله كما في "الدرر الكامنة" (١/ ١٥٢): "لما قدم ابْن تَيْمِية على الْبَرِيد إِلَى الْقَاهِرَة فِي سنة سَبْعمِائة نزل عِنْد عمي شرف الدّين وحض أهل المملكة على الْجِهَاد؛ فَأَغْلَظ القَوْل للسُّلْطَان والأمراء ورتبوا لَهُ فِي مقرّ إِقَامَته فِي كل يَوْم دِينَاراً ومخفقة طَعَام فَلم يقبل شَيْئاً من ذَلِك، وَأرْسل لَهُ السُّلْطَان بقجة قماش فَردهَا".

١٤٤	شتَّانَ بينهما في الحُكمِ يا سُبُكي	كم بين صادقِ قولٍ من مُضرَّبه (١٢٤)
١٤٥	فالعلمُ والفقرُ مقرونانِ في قَرَنٍ	والمالُ والزُّهدُ في شَرقٍ ومغربِه (١٢٥)
١٤٦	لأن ذا العرش يحمي أهل طاعته الد	نيا حِمى أهلِ مريضٍ ما يُضرُّ به
١٤٧	فشيخنا ترك الدُّنيا وزينتها	وخصمُه في هواها من تعذُّبِه (١٢٦)
١٤٨	والله لو لم يكُن بالدين مُتَّسِماً	اشمتَّ فيه الأعادي عن مُعتِبه (١٢٧)

* قال أبو زرعة (العراقي): قلتُ مرةً لشيخنا الإمام البُلقيني: ما تقصيرُ الشَّيْخ تَقِيّ الدّين السُّبْكِيّ عَن الِاجْتِهَاد وَقد اسْتكْمل إِلَيْهِ، وَكَيف يُقَلّد؟ قَالَ: "... فَسكت فَقلت، فَمَا عِنْدِي أَن الِامْتِنَاع من ذَلِك إِلَّا للوظائف الَّتِي قدرت للفقهاء على الْمذَاهب الْأَرْبَعَة، وَأَن من خرج عَن ذَلِك واجتهد لم ينله شَيْء من ذَلِك، وَحُرم ولَايَة الْقَضَاء، وَامْتنع النَّاس من استفتائه، وَنسب إِلَيْهِ الْبِدْعَة فَتَبَسَّمَ ووافقني على ذَلِك" انْتهى. انظر: الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف للدهلوي (ص ٧٣).

* وطلب التقي السُّبكي عند وفاته من السلطان أن يولي ابنه التاج السُّبك؛ فأُجيب له ذلك.

(١٢٤) مضربه: مخلطه. شتان بين الانتقال من سجن إلى سجن، ومن محنة إلى أخرى لأجل الصدع بالحق، وبين السعي للحصول على الوظيفة المناسبة، والتربع على كرسي القضاء في الدولة!

(١٢٤) مقرونان: مربوطان، وكما قيل: (لا يُطلب العلم براحة الجسم).

(١٢٥) مضربه: مخلطه. شتان بين الانتقال من سجن إلى سجن، ومن محنة إلى أخرى لأجل الصدع بالحق، وبين السعي للحصول على الوظيفة المناسبة، والتربع على كرسي القضاء في الدولة!

(١٢٦) راجع البيتين (١٤٢، ١٤٣) مع شرحهما.

(١٢٧) متسماً: منهمكاً فيه، ومعروفاً به. أشمتَّ... عن معتِّبه: أفرحتهم بما يعانيه من عتاب ومحنة ومصيبة.

١٤٩	فالفتكُ قيّدهُ التقوى ومذهبُنا	ترك الجدال وتأنيبٌ لطالبِه (١٢٨)
١٥٠	فهذه نُبذةٌ أوردتُها عَجِلاً	عن ابن تيمية نصراً لِمذهَبِه (١٢٩)

(١٢٨) الفتك: ركوب ما دعت إليه النفس.

* ومعلومٌ أن شيخ الإسلام أوذي في الله كثيراً من قبل قضاة الدولة وفقهائها، وكانوا يوالون الجاشنكير الذي تسلطن بعد الملك الناصر محمد بن قلاوون ظلماً. فلما رجع الملك الناصر إلى الحكم سنة (٧٠٩ هـ) قتل الجاشنكير، وحمل شيخه نصر المنبجي الحلولي، وهلك في زاويته، وقتل كثيراً من رءوس الشر والفساد. وبهذه المناسبة أراد الملك الناصر أن يقضي على الفقهاء والقضاة الذين خالفوه، ووالوا الجاشنكير، وهم الذين تكرّر منهم الإفتاء بقتل شيخ الإسلام حيناً، وبحبسه حيناً آخر. فانتهز هذه الفرصة، واستفتى شيخ الإسلام في قتل بعضهم، فتفطّن لما في قلبه، وقال كما في "العقود الدريَّة" (ص ٢٩٨ –٢٩٩): "... ففهمت مَقْصُوده وَأَن عِنْده حنقاً شَدِيدًا عَلَيْهِم لما خلعوه وَبَايَعُوا الْملك المظفر ركن الدّين بيبرس الجاشنكير؛ فشرعت فِي مدحهم وَالثنَاء عَلَيْهِم وشكرهم، وَأَن هَؤُلَاءِ لَو ذَهَبُوا لم تَجِد مثلهم فِي دولتك، أما أَنا فهم فِي حلٍّ من حَقي وَمن جهتي وسكنت مَا عِنْده عَلَيْهِم. قَالَ فَكَانَ القَاضِي زيد الدّين ابْن مخلوف قَاضِي الْمَالِكِيَّة (والذي ألف السُّبكي شفاء السُّقام لأجله) يَقُول بعد ذَلِك: مَا رَأينَا أتقى من ابْن تَيْمِية لم نبق مُمكنا فِي السَّعْي فِيهِ وَلما قدر علينا عَفا عَنَّا".

وهذا هو معنى قول الناظم: "فالفتكُ قيّده ...".

(١٢٩) نبذة: ناحية من نواحي مناقب شيخ الإسلام والانتصار لمذهبه: مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين –رضوان الله عليهم أجمعين.

وآخر بيت من أبيات السُّبكي، هو:

هذا الذي قاله السُّبكيُّ مرتجلاً... وللبسيط انتمى في بعض أضربه.

فرد عليه الناظم السرّمرّي بقوله:

فهذه نبذةٌ أوردتها عجلاً ... عن ابن تيمية نصراً لمذهبه.

١٥١	والحمدُ لله حمداً استعينُ به	على ذوي البِدع الأعدا لِمَنصِبه
١٥٢	ثُم الصلاةُ على خير الورى شرفاً	وصحبه ومن استهدى بكَوكَبِه